الثـورة ALTHAWRAH
Saturday : 28 The Al Haja 1434 - 2 November - Jssue No. 17880

الصين.. حكاية لا تنتهي

مازلـت مـع كل ما كتبته ارى نفسـي بعيداً عن الحكايـة الصينية، كيف سـأبدأها إذن. لدينا احـكام مسـبقة بسـيطة، نعـرف رمـوزاً عنه مثـل كونفشـيوس، مذهـب التاو ومؤسسـه لاوتسة. بالنسبة لكثير منا هي الأرض الخالقة للسلع، سألني زميل إن كنت اشتريت تلفون محمـول مـن الصين، وقـال آخر مازحـاً إن كنت جلبت معي الاثـاث. في أزمـان قديمة عُرفت كأرض للخزف والشـاي. في الواقع معرفتنا بالثقافة الصينية وفلسفتها ضئيل مقارنة بما نعرفـه عن الغـرب. عرضت على بعض مـن التقيتهم كتاب الروائي الصينـي مويان الذي حاز العام الفائت على جائزة نوبل للآداب، عند زاوية يكتب عليها عنوان الكتاب واسـم المؤلف بالصينية، وادهشهم الأمر. وحدثتني فتاة ان اعمال مويان، من وجهة نظرها، رائعة لكنها معقـدة نوعاًما، وغامضة بعض الشيء. اعمال صينية قليلة تُرجمـت للعربية، وإن بحثنا عن احـد الاعمال الأدبية الأكثر اهمية في الـتراث الصيني "حلم الغرفة الحمراء" لا نعثر عليها في مكتبتنا الفقيرة. وسـنحتاج لنعرف الكثير عن بلد سيعيد رسـم خارطة السياسة والاقتصاد في العالم.

الصين ليسـت فقط ملابس وسلع تغزو أسواق العالم، إنما كذلك انطباعات حالمة تملأها الاسـاطير والحكايات. بلـد اخترع للحضـارة الكثير من الأشـياء؛ الورق، البارود، اكتشـف الشـاي وحتى لعبة كرة القدم. تسـتخدم الكتابة الصينية الرموز كما هو منذ آلاف السنين. إنهـا اقـدم كتابـة حيـة في أرضنا. وكل مـن التقيـت بهم في جامعـة جيانشـي، وهي الجهة المنظمة للبرنامج التدريبي الخاص بنا، اشتكوا من صعوبتها، وستكون لي تجربة في دروس قليلة، قدمتها لنا سيدة صينية بوجه طفولي سعيد يضج بالرضا، وسأعرف سبب ذلك.

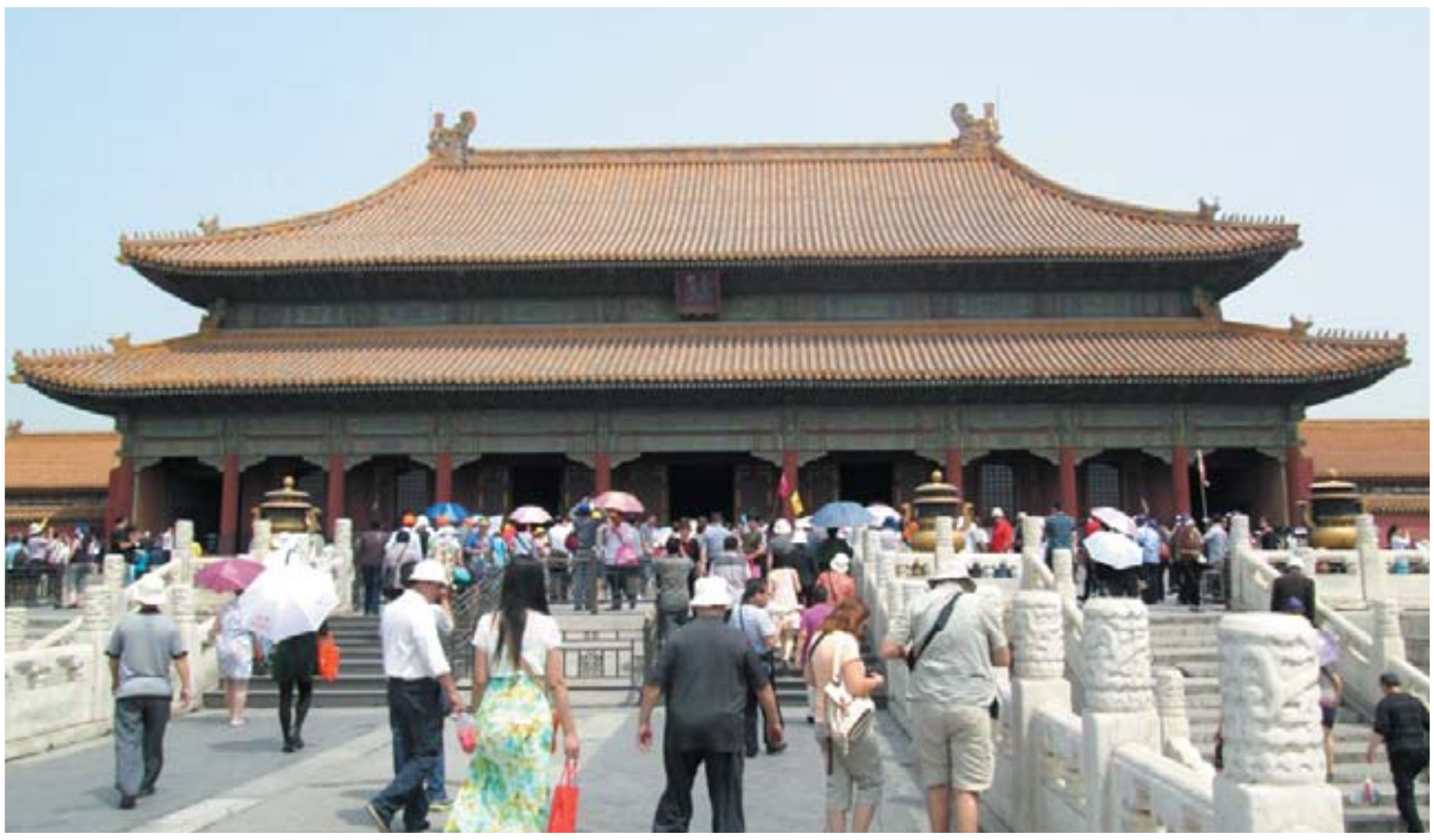

المطبخ الصيني

ثـم هنـاك الأكـلات الصينيـة. أحدهم قـال لي: ان احمـل معـي معلبـات وكعـك، للاستعانة بهـا. لدى اليمني مخاوفه، عندما يسافر خارج بلده يحمل تنكة مملـوءة بالكعك، ربما للتوفير، أو لعـدم تقبله الأكل. وفي الواقع كان زميلـي الأرمني فلاديمير يحمل كعكٍ ارمنـي، أمـا عبدالله النيجيـري فكان يحمـل احياناً إلـى صالة الطعام علبة فلفـل مسحوق، في العادة لا بهـارات في الأكل الصيني، كما يفضلون شـرب الماء دافئاً.

لكل مطبخ عاداته، ولدينا طرقنا في تقبل الروائح، بكـل انطبـاع تخلقـه للشهيـة. عاداتنا فـي التذوق، استخـدام البهـارات، الملـح، السكـر، وفـي أساليب التحضير. لم تعجبني فكرة الذهاب محملا بمعلبات. لنكتشـف بلـداً علينا كذلك معرفـة مطبخه. لاحظتُ فتـاة وهي ترفع إناء الشوربـة إلى قرب فمها وبسرعة كبيرة تتنـاول طعامها. كنت أدرك انـه احتكاك عابر، لعين ظلت طريقها في الصين، تبحث عن كل شـيء، وتريد أن تعرف كل شيء بجشع.

أحببـت الخوض في المغامـرة الآسـيوية، حتى أنـي اعتقدت جازمـاً باستعدادي لتناول أي شـيء. ثم وجـدت نفسي اختار أكلي بعنايـة، ملاحظاً ما هو مكتـوب علـى الورق المغلـف ببلاستيـك بجانب كل صحـن. ويراعـي الصينيـون محرمـات البعض، ولك الحريـة بمـا ترغب بـه. الأكلات الصينيـة ليست كما نعتقد مسبقاً، في الواقع مطبخ غني ومتنوع، ويتعدد كالاختلافات بين منطقة وأخـرى. ليست الصين كما تبدو نمطية، بل تجانسها ينبع من اختلافات كبيرة.

فضل احد البروفسورات الصينيين، في محاضرته لنا، الخروج عن مواضيع الاقتصاد النمطية. وكان بين المواضيع التـي تحدثنا عنها الأكـلات الغريبة، مثل أكل الكوريين للكلاب والقطط. في الحدود المشتركة مـع كوريـا، قال لا وجـود لتلك العادة فـي الصين. ثم أشار إلى مناطق صغيرة اجزاء بين الشمال والنصف والغرب، يشـاع فيها أكلات غريبة. وقـال؛ لا أدري من أيـن جاءت لنـا تلك العـادة السيئـة. يحـاول قانون منـع تلك العادات. في زمن المجاعات شـاعت أكلات غريبة.

يحافـظ الصينيـون علـى مواعيـد وجباتهـم بدقـة. بيـن السابعة والثامنـة صباحـاً يبـدأ الافطار. وبيـن الثانيـة عشـرة والواحـدة ظهـراً، تـرى الناس فـي المحـلات، يحملون انيات ويأكلـون بطريقتهم التقليديـة مستخدميـن العيـدان، وعنـد السادسـة مسـاء يبدأ موعد العشاء. كانـت الوجبات في مطعم الجامعـة نمطية، مـع عدد كبير مـن الاصناف تتكرر. كنا فقط نتعرف لهذا الوجه اليومي والذي لا نستغني عنه، لكن في شـنغهاي عرفنا لـذة المطبخ الصيني. وفـي حفلـة وداع لنـا نظمهـا طـلاب متطوعـون في الجامعـة، عجزت عـن استخـدام العيـدان الصينية لتنـاول لحـم مفروم ملفـوف بعجينة، وجبـة صينية تقليدية نسيت اسمها. اكتشفت بعدها بيوم في حفل عشاء أخير لمغادرتنا الطريقة الصحيحة لاستخدام التقليد الصيني في الاكل.

ملامح لارتياد العيون

كم يحتاج أحدنا لمعرفة بلد هائل وضخم كالتنين، يتحرك برشـاقة مثله.. بالتأكيـد ثلاثة اسابيع ليست كافيـة علـى الاطـلاق، لنفهم بلـداً يبدو لعيـون كسلة متشابهـاً ورتيباً. فرفيقـي الصربي بدت لـه القصور متشابهة في المدينة المحرمة. وفي المطاعم الصينية يتحدث الناس بأصوات عالية مع إيقاع العيدان، وكما لو كنت في أحد مطاعم مدينتي المتسمة بالضجيج. لكـن فـي شـانغهاي وبكيـن تنخفض الأصـوات عن نانشانـج. وفـي الخـارج تشاهـد السمـاء الرمادية، ايقـاع الخطـوات المتأرجحـة والسريعـة كميكانيزم راقـص. هنا تجد مـا هو حميمي وما هـو غير مكترث، العيـون تتطلع إلى وجـودك المختلف، وسط مشهد مكتظ مـن البشر. وكانت فتيات في معرض الملابس تستقبلنـا مـن البوابـة وهـي تصـرخ باعثـة ضحكة وتتقافز معنا إلى الداخل مبتهجات لتعرض لنا بعض الاشـياء. وفي احـد المحلات سألت البائعـة مرافقنا مارلون عن جنسيتي.

اقترب مني رجل تسير بجانبه زوجته، وسط مدينة نانشانـج، سألنـي مبتسما: هندي؟ واشـرت له بأني يمني. فطبعـت ابتسامة ايماءته والتفت لزوجته. من يعرف اليمن، ينطق الياء جيم معطشة. وفي الجامعة قالـت فتـاة صينية انها تعـرف اليمن، لأنهـا مسلمة. تعرف العالم الكبير الذي تشترك معه في الدين. كانت ترتـدي نظارة طبية. في محطـة الباصات بينما حين تيـا أو جيسي تبحث حائرة عن ارقـام الباصات التي تقودنا لموقع الجامعة، سألني شـاب إن كنت هنديا. كما قالت المكسيكيـة مونتي انها عندما شـاهدتني اعتقدتنـي كذلـك، فحركـت رأسـي علـى الطريقـة الهندية مازحا.

وكـان الصينيون يثيـر اهتمامهم زملاؤنـا الافارقة. وفي المدينة المحرمة كان زميلنا روبي الزامبي، الذي تطبع لسانه لكنة الامريكيين الافارقة، بخلاف مواطنه ستاندوال ذي اللكنـة المحلية، يتحول كنجم تتقافز الصينيـات لأخذ صور معه. حتـى ان احد الصينيين كـان يشـجع زوجتـه الخجلـة علـى أخذ صـورة مع احدهـم، وانصاعـت اخيـراً بعـد اصـرار منـه. كانت تبتسـم بخجل بجانب رفيقنا عنـد التقط لها صورة. وإن كانت الصين عاشـت فترة منغلقـة من تاريخها، إلا ان الصينـي بطبيعتـه منفتح علـى الآخر ويحترم ثقافة الآخريـن ومعتقداتهم. وبينمـا كنت ابحث عن ملابـس في احد اسـواق نانشانج اقتربـت مني ثلاث مراهقات ورحبت بي اصغرهن حجما، فضلن مرافقتنا أنـا ومتطوعـة بصحبتـي فكـن يعرضن عليّ بعض الملابس تمـلأ وجوههن ابتسامـات عريضة يطلبن: جربـه. فاخترت تي شـرت رمادي لأرضـي طفلات كن مبتهجات، أكثر مما ارضي نفسي.

دعابة شاردة

كنت عائـداً من وسـط المدينـة، بجانبـي مارلون (وهـو اسـم مستعار) شـاب صيني يـدرس في عامه الأخيـر وينتمـي لأسـرة مسلمة، قال لـي أنه سيذهب بعد انهاء دراستهِ إلى جوانزو المدينةِ التجارية، فقد ضمن هناك عملا. "نانشانج حارة جدا بالصيف" عبر عن رغبته في ترك المدينة.

بينمـا كنـا نصعد سلـم للمشاة، انتبهـت لصينية جميلة تلوح لصديقتين تسيران بجانبنا، اشـارت لي وأرسلت قبلة من بعيـد. ربما كان سيحلو لي انطباعاً بأنـي كازانوفـا تـاه في الـدرب الصينـي. أمـا رفيقنا الصربـي ستيفن الذي عبر عن عـدم رغبته المجيء لحفلـة وداع نظمها طـلاب الجامعة لنـا، وجاء تحت الحاحنا، سكنته انتعاشة بعد الحفلة. كانت الفتيات تطلـب أن تأخذ صـوراً معه، كما لو كـان احد النجوم. فعـاد وهو يـردد: لقد شـعرت انني جون ديـب، (احد نجوم السينما الامريكية). واخبرتني لايان أن مرحي اضفـى علـى حفلهم بهجـة، اطـراءً احببتـه. يمكن للتجهـم بجديته تفسـير الخفة كسذاجـة. فالصين سخية بأن تجعل منك جون ديب لساعة، كما لا تمنع عنك لحظة وهمٍ تتصور فيها بأنك كازانوفا الفينيسي العائـد مرتديـاً وجهاً عربـي، وسيكون عليـك إكمال الفراغات مـرة بخيالـك وأخرى في الواقـع. فطبعت قبلة فـي الهواء تعـرف انها تمتطي صيـرورة لفضاء متخيل يختلق للحب دعابة شاردة في الطريق.

لغة عاطفية

وجـه اسـتاذة اللغـة الصينيـة يشـع بفـرح دائم. تضحـك برضـا إذا نطق احدنـا عبارة صينيـة بنجـاح. وتتمايـل ضحكتهـا ايضـاً إذا أخطأنـا فتتكمـش عينيها. تفتح فمها بسعادة منتظرة محاكاتنا لغتهـا. مـا أن احفـظ عبـارة صينيـة انسـى السابقـة، كصبـاح الخيـر أو مساء الخير. "نيهاو" اي اهلا، القيتها مرات بجمـود ولم اتلـق رد. كنت طفلا سعيداً بمفـردهِ احاول اقحـام نفسي بهـا ولو شـكلياً فـي الحياة الصينية العامة. لا يكفي أحياناً لفظ كلمة، بل التعبير بها، قالت الاستاذة: ان اللغة الصينية صوتية وعاطفية.

عندمـا تحيـي شـخصاً "نيهاو" بوجـوم، كما فعلـت، يصعب فهمك. وصاغت الترحيب في ملامح وجهها بفـرح. للكلمة ايقاع في الوجه والصوت. وبدأت اصيغ البهجة الاحتفالية وانا احيي اناس لا أعرفهم: نيهاو، ممطوطـة وسعيدة. وقـد ابدو مضحكا، لكـن البعض يتسامـح وهناك من يرحب بمحادثـة إن كان يتحدث الانجليزية. كان اكتشاف بالنسبة لي، هو تلك السمة العاطفية. وفي المحاضرة الوحيدة التي كانت باللغة الصينيـة، فاضت الكلمـات بشحنـة انفعالية لم نكن نلحظها عند المحاضرين وهم يتحدثون الانجليزية. يتعلق الأمر باللغـة. واحيانا إذا أسأت فهم المتحدث ستعتقد انها شحنة غضب.

فـي الصينيـة المفـردات تحمـل معانـي كثيـرة، وايقاعهـا الصوتـي يحمل الفـارق. وتذكـرت احدهم كـان يخبرني انـه لا يحب الصـوت الصينـي، لكنني تعرفـت قليلاً لقشـور في جمالية لغتهـم، على الأقل بعدها العاطفي، ولـم احتفظ من كلماتها سوى بعدد محـدود. ويؤكد الأجانـب هناك بأنها صعبـة للغاية. وعندمـا تتحـدث الفتيات أو أي شـخص ترى طقس التعبيـر يتماوج في الوجـوه، فتتحول اللغـة ايقاعاً. حتـى عندما تقول إحداهن بالانجليزية No تنكمش مستدعية حـذر متحرج يفضل الرفـض ملتوياً، غير صادم بـلا، وبالتحديـد مع الغريـب. فتتكـرر الكلمة متسارعـة وتخضهـا ارتعاشـة، تنقبض العيـن بينما يتسع الفم ضحكة منفلتة، وترتفع السبابة من اصابع اليد بإشـارتها. وعندما طلبت من فتيات كتابة اسمي بالصينيـة عجـزن عن ذلـك، فكتبتـه مدرسـة اللغة السعيـدة. وكنـت اخبرهم بـأن اسمي جمـال حسن يعني good beautyواضحك مرحا.

الرفض لكن بلياقة

يفضـل الصينيـون فـي العـادة الالتفـاف علـى الرفـض الحاسـم مـع الغريب. وهـي عـادة آسيوية. وعندمـا طلب زميلنا الكاميروني مـن مرافقتنا جولي استدعـاء مجموعتنا في نفـس البرنامج لمرة قادمة. لم تخبره بأن الأمر صعب أو غير ممكن. رحبت وطلبت منـا التواصل معها. مـع أن المسألـة ليست ببساطة الاعتماد المباشـر علـى تواصل. بـل تنظمها قنوات أخـرى والجامعـة جهـة تنظـم برامج تدعمهـا وزارة التجارة الصينية وتدعو مرشحين من بلدان مختلفة، ويكـون التواصل عبـر السـفارات الصينيـة في تلك البلدان. يتحرج الصيني من صدك بـ(لا).

الأم الأكثر حظاً

لـن انسـى وجـه الاسـتاذة البشـوش والطفولي. لسعادتها علاقة بحظها الأمومي. حظ يتوفر لقليلين هنـاك. القانـون الصينـي لا يسـمح بإنجـاب اكثـر من طفـل ذكـر، اذا كان المولـود الأول صبـي تكتفـي العائلة امـا اذا كانـت فتـاة، يمكنهـا انجـاب ثـان، وستكـون الاسـرة السعيـدة اذا كـان صبياً، لأنـه لن يُسمح لـه مجدداً بالانجاب. وأي آباءٍ ينجبان ابناً وإبنة فهـم الأكثـر حظـاً وسعـادة. حظيت الاسـتاذة ذات الجسـد الضئيل بتوأم صبـيٍ وبنـت. فكانـت اكثـر الامهـات حظاً في بلد يحـاول السيطرة على الزيـادة السكانيـة. سألتنـي لويان وهي فتاة جميلـة تدرس في جامعة جيانشـي للاقتصـاد والمـال قسم ادارة الاعمـال، كـم لدي مـن الاولاد، فاخبرتهـا بنت وابن، ولـدي مولودة أخـرى فـي الطريـق. فقالـت بحسرة: انت شـخص محظـوظ. طاف حزن في عينيها، لشيء حُرمت منه. اطفـال وحيدين لعائلاتهم، وسـترى حياتها القادمة كأم لديها طفل وحيد.

جمال حسن

مـع ذلـك، كثير من الاسـر الصينيـة خصوصاً في الريـف، لا تلتـزم بقانـون تحديد الابنـاء. وهناك كما قـال البروفسـور لنـا، مـا يزيد عـن خمسـين مليون صينـي خـارج السجـل المدنـي، فالاباء يخفونهم. وثمـة مراجعات فـي رأس النظام الصينـي حول هذا القانـون. وعندما ناقش زعماء الحـزب، اهم تحديات الصين اشـاروا إلـى مشكلة اجتماعيـة تتعلق بجيل مدلـل، تجد فيهـم عائلاتهم طفلها الوحيـد. ثمة آراء تقتـرح السمـاح للعائـلات بانجـاب اطفـال بمرونة اكثر وإن كانـت تخضع للتنظيـم. وسيجعل السماح بحرية الانجاب لويان سعيدة كأم في المستقبل. مع ذلـك فتوسيع حدود الانجـاب يخلق تحديات أخرى تتعلـق بزيـادة سكانيـة. كمـا ان الصين فـي الثلاثة العقود القادمة ستتحول إلى مجتمع معظمه في سن الشيخوخة. وهو المعدل الذي يرتفع في اوروبا.

ما بعد ماو

خلال الثـورة الثقافية، تم ارسـال مثقفين ودكاترة الجامعة واطباء ومهندسـين الى القرى ليتعلموا من الفلاحيـن، فـي لحظة مغـالاة اعتقـد مـاو انها لحظة تطهير. لكـن العقل الصيني يستطيـع المهادنة دون ان يستسلـم، بل يغير استراتيجيته، وينتظر اللحظة المواتية.

مازالت صورة ماوتسـي تونج توضع على العملات وعلـى ساحـة بكيـن. واليـوم يجـرؤ الكثيـر لوصفه بالديكتاتور، ويذكرنا البعض عن عصابة الأربعة. وهو ما قاله احد المحاضرين مدافعاً عن النظام السياسي الصيني اليوم. اشـار نائب جامعـة جيانشي إلى انه فـي زمن مـاو كان يُسمح فقط بارتـداء اربعـة الوان: الاسـود، الابيض، الرمـادي والأخضر. ثـم أدار ذراعه وهـو يطلب منـا النظر كيف تغيرت بلـده، وكيف تزهر الالوان بحرية في ملابس الصينيين.

فاليوم دور الازياء العالمية تتهافت للحصول على امتيـازات استثماريـة وتفتتح لها واجهـات في بكين وشـانغهاي: زيجنا، لويس فانتون، غوتشي، ارماني، كانالـي. وفي منطقة الفرنـش كونسيشن بشنغهاي، تجـد المجتمـع المخملـي الصينـي متألقـاً بأزيـاء فاخرة، وتلك مجـرد قشور لنقلة هائلة حدثت. وترفل الحياة هنا بطرازات متنوعة من السيارات والمقتنيات العصرية. مظاهر الحياة شباب منشغلون بالتواصل عبر انظمة الويندروود جوالات اي فون، او جلاكسي، تجعلهـم يغرقون فـي اطياف الشبكـات الاجتماعية وهم ينتظـرون او يأخذون مقاعدهم فـي المواصلات العامـة او التكاسي. سألتني بائعـة صغيرة في سوق السلـع المقلدة في بكين لماذا استخدم تلفون قديم؟ اجبتهـا ضاحكاً انني رجل قديم الطراز. قدرت حينها عمري كخمسيني فضحكت معتبراً أن ما قالته دعابة رغـم انها بدت جـادة. وأخـرى وصفتنـي بالمجنون لأنني اعطيتها سعراً بخساً لسلعة تبيعها.

تقدم وثمن

ولا تنكـر النخـب دور ماوتسـي تونـج فـي تحول الصيـن دولة عظمـى. غيـر ان الازدهار الـذي تحقق اليـوم بفضـل اصلاحـات بـدأت تدريجيـاً منـذ عام 1978م، بعـد وفاتـه. مـع ذلـك هنـاك ثمن يتـم دفعه للتقدم. تحدثت في إحدى المحاضرات ان البيئة هي اكبر تحد يواجه الصين في المستقبل. تضم نانشانج مدينة صناعية عملاقة. قمنا بزيارة عدد من المصانع منهـا؛ مصنع للمكيفـات، واخـر لشرائـح الالمنيوم. كانـت الاجهـزة تدور فـي خط انتـاج المكيفـات، كل عامـل يقوم بعمـل روتينـي محدود، حسـب تقسيم العمل. وكانت سيدة كبيرة بين وقت وآخر تنظر نحونا بينمـا تثبت الحلزونيات، مازالـت عذرية الفضول لم تمزقها آلة الصناعة. وفي مصنع آخر، لاحظت عاملا، او عاملـة، تقـوم بتدويـر المسامير بإداة كبيـرة. هذا الروتيـن يتغلغـل في حياة العامل ليصبح كل شـيء فيـه، أحسسـت حينهـا بقدر عامـل تلتهمـه ماكينة بروتين حركتها.

قدمت لنـا امـرأة شـرح لمجسـم يبيـن مخطـط المدينـة الصناعيـة. مصانـع ومدينـة لوجستيـة، مكاتـب للشركات. فـي الوسـط هناك بحيـرة كبيرة. ألـم يكن هنـاك منطقـة أخـرى بعيـداً عـن البحيرة لتشييد المداخن؟ طافت بنا قاطرتان صغيرتان حول البحيرة المحاطة بحديقة تطرزها اشجار الصفصاف الماغنوليـا والارجوان. هل ستكون البحيرة بعد عشر سنوات كمـا هـي الآن، أم ان التلـوث سيفسدها. قال احـد موظفـي المنطقـة، ان الحكومـة تنفـق الكثير لتحافـظ على المكان من التلوث. وكانت امامنا مركبة ترش الماء على الأشجار ثمة عشاق واخرين يطوفون بدراجـات. مـا يحدث فـي الصين اليوم هـو نفسه ما حدث لليابان قبـل عقود، بعدها مـع تطور الاقتصاد بـدأت الصناعات تتقيد بشروط الحفاظ على البيئة، وهو ما بـدأت الصيـن تدريجيا العمل به فـي الطاقة النظيفة.

اسماء مستعارة

كانت دليلنا في شانغهاي شابة تعمل مع إحدى شركات السياحة، اطلقت على نفسها اسم جيسي. كثير مـن الصينيين حين تلتقيهـم يدركون صعوبة اسمائهـم بالنسبـة للغربـاء، فيقدمـون تنـازلا من أجل التواصل، اسماء غربية. جيسي، اليس، ليلي، جولـي...، وفي الحقيقة ستجـد اسماءهن زونجي، كوانج، لويان، جان تيا. اما دليلنا في يكين فاستعار اسـم مايكـل. وجـدت نفسـي واقعـاً في اشـكالية الاسمـاء، كنت اطلب مـن الآخرين كتابـة اسمائهم على ورق، ربما في تلفوني. ليس هناك شـعب يقدم تنـازلا كالصيني للتفاهم مع الغريـب. كنا نعوم في عالم متسامح حد التنازل عن اسمه لمصلحة رموز وهميـة يمكن حفظهـا، بينمـا لا نكرمـه بالانصات المقابـل. انه يخطو خطوة لا تخطوها انت، فيضيع منك جانب من الصين.

بعد سؤالنا وكنا مـن بلدان مختلفة، انزعجت مرافقتنا الصينية السيدة جولي، عندما سألتها الفتـاة العاملـة في "بيـت الجواهر" مـن أي بلد هـي؟ أجابتها، بعـد ان الحت، بعبـارات صينية. وتحدثـت لفتـرة طويلـة دون أن يكـون أي أثـر لمداعبـة، لم نفهـم لكن حديـث مرافقتنـا رأيته ينعكـس فـي وجه الفتـاة التي ارتبكـت. وعندما ذهبت احـدى الفتيـات العاملات جـاءت سيدة كبيـرة كانـت مسئولـة فـي الشركـة المصنعـة للجواهـر، وعـادت تسألنـا من أي بلـد نحن، ثم قليـلا التفتـت لمرافقتنـا وقالـت بابتسامة ذات مغزى. "انت سنغافورية.. تبدين لي سنغفورية" فابتسمت منكمشة دون أن ترد.

تحف قديمة

فـي شـانغهاي زرنـا متحـف بخمسـة طوابـق، مصمـم بطريقة عصرية. وأخذنا طابوراً يضم اناساً من بلـدان مختلفة، وكـان المطر ينهمـر فوقنا وكنا محميين بمظلات. اعطتنـا الدليـل ساعة ونصف حتى نلتقي في قاعـة يعرض عملات قديمة ذهبية، فضيـة، وورقيـة. ازيـاء متنوعـة لثقافـات مختلفة تضمهـا الصيـن. فـن علـى الخـزف، تشكيـل على اقمشة ترتدي الطبيعـة واحيانا رموز كتابية، رسوم تجسـد البعد الحسي للفن الصيني، عرف الانسان الفـن التشكيلـي اول مرة في الصيـن. اثاث خشبي قديـم، مركـب تقليـدي تأرجـح ذات يوم فـي امواج شنغهاي، وجوه صينية على الخشب، اقنعة هائجة بالغضـب، الوان سـوداء كستنائيـة عليها خطوط ومتوجـة. ثمـة رموز تبـدو دينيـة، اشـكال مقدسة اسطوريـة علـى الذهـب والبرونـز. سيـدة متوجة تلتصـق وراءهـا امرأة اخـرى تجلس علـى هيئتها فتفهم دلالة وجود ثمانية أذرع. رجل يجلس ككاهن تمتزج به امرأة فوق اسد.

صـادف وجود معـرض في المتحـف يقـدم فنوناً وسط افريقيا. فنون من بـلاد الكونغو. فتنتني بدائية المنحوتـات الافريقية، وكأنني ادركتٍ هوس غوغان بإعـادة تشكيـل الفن البدائـي مترحلاً فـي هاييتي. منحوتـات خشبية، وجوه بهيئـة بيضاوية تبرز فيها الانف والعيون، كوفية كمثلث واستطالتين من جانبي الـرأس تمثلان الشعر وظفيرتين، فـي الاسفل قدمان تدوس احدهما على الأخرى تحت شكل مُعين. وجوه واسعة العيون، تماثيل صغيرة لنساء عاريات النهود. عجائبيـة الفن الافريقي يحفز خيالنا الأول. اشـكال نحيلة منحوتة عليها نقوش بسيطة بخطوط سوداء، بني ملتهب وابيض. رجل على خاصرته فتيلة افريقية للراقصيـن، ولوحة سـوداء معبئة بأشـكال هندسية بسيطـة، في الوسط رجل تعلوه شـمس وهلال. تبدو كما لو كانت خربشـات الانسان الجامحة غير الآبهة بأي قانون.